ألفاظُ الأُسْرةِ في سورةِ يوسفَ (عليهِ السلامُ): دراسةً دَلاليةً بينَ الخِطابِ، وآثارِه النفسيةِ والاجتماعيةِ

أ.د. علي عبد الفتاح الحاج فرهود الحسناوي
جامعة بابل – كلية التربية الأساسية

Family words in Surat Yusuf (peace be upon him):
A semantic study between discourse and its psychological and social effects

Prof. Dr. Ali Abdel Fattah Al-Hajj Farhoud Al-Hasnawi
Babylon university - college of basic education

مقدمةٌ:

أَما قَبْلُ؛

فالحمدُ للـــــهِ ربِّ العالمين، والصـلاةُ والسـلامُ على خيرِ خلقِه أَجمعين الرسـولِ الأَحمدِ الصـادقِ الأَمينِ (صلَّى اللهُ عليه وآلِه)، وأَهلِ بيتِه الأَطيبينَ الأَطهرين.

يَطيبُ لي أَن أُقدِّمَ ورقتي البحثيةِ هذه بما يَبِينُ تدبُّرُه في النصِّ القرآنيِّ بموجِبِ المعرفةِ القرآنيةِ نفسِـها في ضـوءِ ما تُبنَى عليه من تحصـيلٍ تعلُّميٍّ – تعليميٍّ أُصـوليٍّ وافٍ؛ ليكونَ مضـمونُها مَرشَـدًا لأَدبِ الحوارِ بينَ أَفرادِ الأُسرةِ وسواهم من جهةٍ، ومَحذَرًا من التزلُّفِ أَوِ التنكُّرِ الحواريِّ من جهةٍ أُخرى.

وأَما بَعْدُ؛

فإِنَّ الانميازَ الذي حَظِيت به اللغةُ العربيةُ بامتخارِها لسانًا مُبينًا أَنزلَ اللـــــهُ تعالى به القرآنَ الكريمَ على رسولِه الأَحمدِ (صلَّى اللــهُ عليه وآلِه) قد تأَتَّى من مِكنَتِها البيانيةِ (لفظًا، ونظمًا، ودَلالةً، وأُسلوبًا) التي استوَت بها على سُـــوقِها؛ فأَعجَبَت وتحدَّتِ البُلغاءَ، وأَغاظت وأَعجزَتِ الجُهلاءَ، وهدَى نورُ كتابِها الإِلهيِّ الناسَ الأَنقياءَ. والكلُّ قد دُعُوا تبشيرًا لانتهاجِ هَدْيِه إِخراجًا لهم من الظُلُماتِ إِلى النور.

لقد عُنِيتُ بحسـبِ تخصـصـي العلميِّ الدقيقِ في ميدانِ (اللغةِ العربيةِ ، والدَّلالةِ القرآنيةِ اللغويةِ) بأَن أُقدِّمَ ما أَجِدُه نافعًا في جدواهُ ، ويهتدي به الباحثون ، والناسُ على حدٍّ سـواءٍ بهُداهُ ؛ فاخترتُ سـورةَ يوسـفَ (عليه

السلامُ) واسِمًا منها هذا البحثَ (أَلفاظُ الأُسْرةِ في سورةِ يوسفَ (عليهِ السلامُ): دراسةً دَلاليةً بينَ الخِطابِ ، وآثارِهِ النفسيةِ والاجتماعيةِ) بتحليلٍ تدبُّريٍّ لم يُستَقَى من مصادرَ ، أَو مراجعَ قطُّ بل تحصَّل من فيوضِ التوفيقِ الإلهيِّ تحصيلًا معرفيًّا أَسيحُ به في فضاءاتِ اللفظِ الحواريِّ الواحدِ في ظلِّ سياقِه ، وبواعثِ مقالِه ، واستصحابِ حالِه ، وموقفِه ومَقامِه بين التحنُّنِ والتجافي ، والمَدحِ والقَدحِ ، والتقرُّبِ والتنكُّرِ معتمِدًا على تسلسُلِ الحوارِ المختصِّ بأَلفاظِ الأُسرةِ (أَب ، ابن ، أَخ) وما يتصِلُ بها تخاطُبًا وَجْهِيًّا ، أَو ذِكرًا غيابيًّا من أَول السورةِ حتى آخرِها.

وهذا البحثُ الموجزُ بنظمِه ، الكبيرُ بمُعطياتِه اعتبارًا بقولِه تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف/١١١] أُقدِّمُه؛ ليكونَ بمتنِه ومضمونِه ، ونتائجِه وتوصياتِه دليلَ عملٍ قيّمٍ في نَظْمِ علاقاتِ الأُسرةِ والمجتمعِ ، وأَبناءِ المنظومةِ القِيَميةِ الواحدة في ضوءِ ما يُؤسِّسُ له الخطابُ الثنائيُّ المتبادَلُ تارةً حِوارًا بين أَفرادِ الأُسرةِ الواحدةِ من جهةٍ ، وبين أَفرادِ المجتمعِ فيما بينَهم من جهةٍ أُخرى ، أَو الخطابُ الغيبيُّ تارةً أُخرى إخبارًا عنهم.

إذًا تقومُ فِكرةُ هذا البحثِ على عَرضِ مشكلةِ العلاقاتِ في الأُسرةِ الواحدةِ في ظلِّ مواقفِ المخالفةِ أَو المؤالفةِ، وتجلِّي آثارِ هذه المواقفِ في خِطابِ أَفرادِها وحواراتِهم فيما بينَهم، أَو مع سواهم بما يَعكِسُ الآثارَ النفسيةَ، والاجتماعيةَ التي تُوظِّفُها أَلفاظُ هذا الخِطابِ بحسبِ مستوى التعبيرِ بها عمَّا يَشعُرُ به المتكلِّمُ إزاءَ المُخاطَبِ بالحوارِ مع الحاضرِ مباشرةً، أَو بالحوارِ عنِ الغائبِ.

ويُوصي هذا البحثُ بالاعتبارِ اللازمِ من هذا العرضِ تهذيبًا أَخلاقيًّا ضروريًّا في مجتمعِنا، وما يستدعيه من خطابٍ بنَّاء على صعيدِ الفردِ خاصةً من جهةٍ، والمجتمعِ عامةً من جهةٍ أُخرى.

وقد أَقمتُ فِكرةَ هذا البحثِ على أَساسَينِ رئيسَينِ هما:

١- الآيةُ القرآنيةُ من سورةِ يوسفَ (عليه السلامُ) التي تضمنت لفظًا أُسَرِيًّا مختصًّا، وما يتصلُ بها أَو يتفرَّعُ عنها تسلسلًا متتابعًا بحسبِ الاستعمالاتِ الواردةِ في السورةِ.

٢- التعبيرُ الخطابيُّ في الحِوارِ المتبادَلِ المباشرِ، أَو في الإخبارِ الغيبيِّ عنِ الآخَرِ بما يتضمنُه أُسلوبُه من صِدقِ المشاعر، والاحترامِ، أَوِ التحنُّنِ، أَوِ التزلُّفِ والتصنُّعِ، أَوِ الاحتيالِ والتبرقُعِ.

وبمعطياتِ التحليلِ عن هذينِ الأَســاسَــينِ الرئيسَــينِ لفِكرةِ هذا البحثِ يأتي التقييمُ اللازمُ لما يجري من علاقاتٍ حواريةٍ بين أَبناءِ الأُسرةِ الواحدةِ ، والمجتمعِ على حدٍّ سواءٍ ، وما ينبني عليه من تقويمٍ لازمٍ.

لقد أَمرنا اللـــــــهُ تعالى بقولِه: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص/٢٩] فجاء بحثي هذا بموجبِ هذا الأَمرِ الإلهيِّ البيِّنِ تدبُّرًا تحليليًّا على النحوِ الآتي:

المَوردُ القرآنيُّ (١):

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[٤].

تتألَقُ واشــجةُ الحنانِ الفيَّاضِ بينَ الابنِ الصــغيرِ عُمُرًا وأَبيه الكبيرِ تجربةً بما يتحصَّــلُ لها من معاني الخشيةِ والخوفِ من مستقبلٍ قريبٍ تنتظِرُ أَحداثُه هذا الابنَ.

لقد خاطب النبيُّ يوســفُ (عليه الســلامُ) أَباه بأَروعِ خِطابٍ تجلَّت فيه قِيَمُ التواضُــعِ، والخشــيةِ، وطلبِ الحمايةِ والتأمينِ بقولِه: (يا أَبتِ) بما تحمِلُه من رِقةٍ واســـتعطافٍ ولجوءٍ بمُفتتحِ قولِه تعالى: (لأَبيهِ) إظهارًا لسمُوِّ هذه العلاقةِ بينهما؛ فالأَبُ هو المَلاذُ، والابنُ هو اللائذُ.

إذًا لا فائدةَ من شدةِ الخطابِ من الابنِ إلى أبيه، ولا جدوَى من خشونةِ العبارةِ منه إليه.

المَوردُ (٢):

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[٥].

وهنا تأتي رسالةُ الاطمئنانِ الذي يستدعيه يوسفُ (عليه السلامُ) وهو في هذه الخَشيةِ من القادمِ بحسبِ الرؤيا الصادقةِ التي رآها؛ فيوجِّهه أَبوهُ النبيُّ يعقوبُ (عليه السلامُ) بعبارةِ جوابٍ مِلؤُه الحِرصُ عليه بأَن يَبقى خبرُ هذه الرؤيا حبيسَ الإِسرارِ عن إِخوتِه الذي يتربصون به، ويتحسَّسون منه حسَدًا، وبُغضًا؛ فيقولُ له أَبوه: (يا بُنَيَّ) مقابلةً لقولِ ابنِه: (يا أَبَتِ) بما في العبارةِ المقابِلةِ من حنانٍ، وتقريبٍ، واحتضانٍ، وتطمينٍ آمِنٍ.

وهذا هو ما يُرجَى من الأَبِ أَن يكونَ عونًا لابنِه في شِدتِه، وملاذًا له في مِحنتِه.

المَوردُ (٣):

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٦].

وبعد تبادُلِ الخِطابِ المُعبِّرِ عن وثاقةِ العِلاقةِ بين الابنِ الصالحِ اللاجئِ إِلى أَبيهِ، والأَبِ الصالحِ الناصحِ له يأتي توثيقُ هذا النصحِ بما يَزيدُ الابنَ اطمئنانًا بعَرضِ سيرةِ الصالحينَ من آبائِه الذين مرُّوا بشدائدَ وتحدياتٍ؛ فثبَتُوا فيها حتى حققُوا الظفَرَ بالحُسنَى ما يجعلُ الابنَ على ثقةٍ عُليا بربِّه، ثم بأَبيهِ وبنفسِه بما اكتنفته قولُه: (أَبوَيكَ) المُرادُ به كلٌّ من (إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ) عليهما السلامُ.

إِذًا يتحصَّلُ لنا أَنَّ إِخبارَ الأَبناءِ بسيرةِ الصالحين المُصلِحين من الآباءِ والأَجدادِ يَمنحُهُم ثقةً عُليا بأَنفسِهم، واعتدادًا طيبًا بتصدِّيهِم للمواقفِ بما يتفاءلونَ به إِقدامًا على ما يُبتلَونَ به بالثباتِ على الحقِّ، وتحقيقِ الأَهداف.

المَوردُ (٤):

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾[٧].

وهنا يُطالِعُنا الإخبارُ الإلهيُّ عن الأُسرةِ بالصالحِ منها والطالحِ بعبارةِ (يوسفَ وإخوتِه) من أَنَّ اللازمَ من معرفةِ ما جرى بينَهم بالعَرضِ القرآنيِّ أَن يستبينَ لنا المسارُ الذي يجبُ سلوكُه نجاةً عند اللهِ سبحانَه.

المَوردُ (٥):

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[٨].

وهذا حوارٌ داخليٌّ عقَدَ جِلستَه إخوةُ يوسفَ (عليه السلامُ) فيما بينَهم وقد أَظهرُوا فيه بعبارتِهم (لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ) أَنهما غريبانِ عنهما كشفًا لمكنونِ أَنفسِهم بحسَدِهم لأَخويهِم (يوسفَ وبنيامنين) معًا برؤيةٍ قاصرةٍ كانُوا هم من جهتِهم فقط ينظرونَ بها وهي مخالفةٌ للواقعِ الأَخلاقيِّ الذي كان ينتهِجُه النبيُّ يعقوبُ (عليه السلامُ)؛ فقولُهم: (وأَخوهُ) يُدُلُّ على إبعادِهما عنهم نسَبًا لفظيًّا ، ولو أَرادُوه حُبًّا بهما لقالُوا: (لَأَخَوَانا)، أَو (لَيوسفُ وأَخونا) كما قالُوا: (إِلى أَبينا، وإِنَّ أَبانا) كشفًا عمَّا يرجُونَه من تزلُّفٍ وتقرُّبٍ إِلى أَبيهِم، ولم يقولُوا: (إِلى أَبيهما، وإِنَّ أَباهما) عزلًا تغريبيًّا للأَبِ عنهم؛ فجنحُوا إِلى هذا التزلُّفِ والتقرُّبِ اعتدادًا منهم بوصفِهم أَنفسَهم بأَنهم معًا (عُصبةٌ).

وبهذا الاعتبارِ يجبُ أَن نوجِّهَ بلزومِ تجنُّبِ الخِطابِ التغريبيِّ الكاذبِ المُفرّقِ واعتمادِ الخِطابِ التقريبيِّ الصادقِ الجامعِ عندما نذكُرُ ذوينا.

المَوردُ (٦):

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾[٩].

وهنا يتجلَّى العَمَى بأَبشَعِ صورِهِ عندما يَجنَحُ الأَخُ إِلى اقتراحِ قتلِ أَخيهِ البريءِ، أَو نفيِهِ بعيدًا جدًّا من دونِ رادعٍ من خشيةِ اللهِ، ولا وازعٍ من صِلةِ دَمٍ، أَو ذرةِ حُبٍّ؛ فجاء حوارُ الإِخوةِ برأيِ أَحدِهم (اقتُلُوا يوسفَ أَوِ اطرَحُوهُ أَرضًا)، ولم يقُلِ (اقتُلُوا أَخانا أَوِ اطرَحُوهُ أَرضًا)؛ فآصرةُ الإِخاءِ مقطوعةٌ ممنوعةٌ عندَهم.

وقد كررُوا تزلُّفَهم للتفردِ بأَبيهم ظاهرًا فقط بقولِهم: (وجهُ أَبيكم) تصنُّعًا لتقرُّبِهم إِليه مع حضورِ إِنكارِهم إِياه بلفظِ (أَبيكم) على لسانِ أَخيهمُ المتحدِّثِ هنا إِذ لم يقُل: (وجهُ أَبينا).

وهذه التعبيراتُ مستنكَرةٌ من الأَبناءِ إِزاءَ آبائِهم وصفًا لهم في محاورِ غيابِ الأَبِ، ومعاقدِ المؤمراتِ.

المَوردُ (٧):

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾[١١].

وهنا تتحصَّلُ المقابلةُ المباشرةُ بعد حبْكِ المؤامرةِ؛ فتاتي عبارةُ الخِطابِ بلفظِ التحنُّنِ والتلطُّفِ والتقرُّبِ والتزلُّفِ من الأَبناءِ إِلى أَبيهِم: (يا أَبانا) نداءً هادئًا بلباسِ الإِقناعِ تصريحًا باسمِ (يوسفَ / عليه السلامُ) ولم يقولُوا: (على أَخينا) تحديدًا لـ(يوسفَ) دونَ غيرِهِ؛ فهو معقدُ الأَمرِ، ومقصَدُ الغَدْرِ.

المَوردُ (٨):

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ، قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[١٦-١٧].

ويُخبرُ النصُّ القرآنيُّ عن حقيقةِ صِلتِهم بأَبيهم بلفظِ (أَباهم) حكايةً عن موقفِ مَقدَمِهم إِليهِ واقعًا، وخطابِهم له بقولِهم: (يا أَبانا) تحنُّنًا وتلطُّفًا وتقرُّبًا وتزلُّفًا بلسانٍ خائفٍ متصنِّعٍ الحُزنَ بنَبرَتِه التي يُشعِرُنا بها القرآنُ.

وهذا من مآسِفِ المواقفِ التي لا يجوزُ للابنِ أَن يقفَ فيها بناءً على اتخاذِه الصدقَ فقط سبيلَ إِخبارٍ، وخطابَ حوارٍ.

المَوردُ (٩):

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[٣٧-٣٨].

وينبرِي النبيُّ يوسفُ (عليه السلامُ) بلسانِ الواثقِ بربّه، ثم برسالتِه وبمعجزتِه يُحاورُ صاحبَي السِّجنِ ومَن معه فيه معربًا عن شرفِ انتسابِه، ورِفعةِ انتمائِه إِلى أَكابرِ أُسرتِه بقولِه اعتزازًا: (مِلَّةَ آبائي) تعريفًا صريحًا بهم (أَبا جَدٍّ، وجَدًّا، وأَبًا مباشِرًا) وهم الأَنبياءُ الأعاظمُ (إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ).

وهذا توجيهٌ أَخلاقيٌّ جَلِيٌّ بوجوبِ الاعزازِ نسَبًا بالصالحين، ورعايةِ ذِكرِهم في مواقفِ إِثباتِ الشرَفِ والمَنَعَةِ ما يُوثّقُ الثقةَ بالنفسِ، ويُزيلُ الأثارَ النفسيةَ السلبيةَ من تراجعٍ واستحياءٍ وضَعفٍ وارتخاء.

المَوردُ (١٠):

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾[٥٨].

وهنا نقِفُ عندَ حَدَثٍ مِلؤُه الخشيةُ من الكشفِ المباشرِ لشخصيةٍ ظلمها ذووها الأَقربون، شخصيةٍ تأمَلُ أَن تكونَ خفيةً على أَعدائِها وهي تلتقي بهم في ضوءِ قولِه تعالى إِخبارًا: (وجَاءَ إِخوَةُ يُوسُفَ) – وهم إِخوتُه حقًّا – خفاءً يُعتمَدُ فِعلًا طلبًا لتوثيقِ حقائقَ يُستدَلُّ بها عليهم لاحقًا عند إِرادةِ إِيقاعِ الحُجةِ عليهم بالتقاضي والتحاكُمِ الحقِّ ردعًا لهم، وكشفًا لزَيفِ سيرتِهم، وكَذِبِ حواراتِهم وعباراتِهم، وتصنُّعِ أَلفاظِهم.

المَوردُ (١١):

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾ [٥٩].

هنا خاطبَهم النبيُّ يوسفُ (عليه السلامُ) بعبارةٍ تُفصِحُ عن أَنه غريبٌ عنهم (بأَخٍ لَّكم من أَبيكُم)، ولم يقُل: (بأَخي وأَخيكم من أَبينا) تنكُّرًا شرعيًّا من غاياتِه أَن يُبعِدَ الشكَّ فيه تحصيلًا للأَدلةِ التي تُدينُهم لاحقًا من جهةٍ، وأَن يَّعرِفَ أَحوالَ الأُسرةِ بعد فراقٍ دامَ عقودًا من الزمَنِ من جهةٍ أُخرى.

فهذا توجيهٌ شرعيٌّ باتخاذِ التقيةِ وسيلةً لحِفظِ النفسِ من جهةٍ، ولاستحصالِ الحقائقِ مباشرةً من جهةٍ أُخرى.

المَوردُ (١٢):

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ [٦١].

بلفظٍ متنكِّرٍ جافٍ غليظٍ هو (أَباهُ) نطقَ إِخوةُ يوسفَ (عليه السلامُ) بما يُفصِحُ عن عدمِ توقيرِهم إَباهم، وعن تغريبِهم إِياهُ في ذِكرِه بالوصفِ الأُسَريّ وهو غائبٌ عنهم إِذ لم يقولُوا: (أَبانا) تحقيقًا لصِلتِه بهم فهو أَبوهم!

وهذا الحوارُ يكشِفُ لنا عن وجوبِ ذمِّ مَن يتنكَّرُ لوالدِه وهو يذكرُه مقابلَ الثناءِ على مَن يتشرَّفُ بوالدِه وهو يذكرُه انتسابًا.

المَوردُ (١٣):

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٦٢].

وتُطالعُنا عبارةُ (أَهلِهِم) التي وردت في مَعرِضِ توجيهِ النبيّ يوسفَ (عليه السلامُ) وهو يقررُ أَنَّ الأَهلَ (من أَبٍ وزوجِه وأَبنائِه وأَزواجِهم وذراريهِم وتفرعاتِهم جميعًا) هم قِوامُ عمَلِ كلِّ فردٍ يسعى لتوفيرِ قوتِهم ، وتأمينِ معيشتِهم ؛ فالأُسرةُ هي محَلُّ العنايةِ ، ومناطُ الرعاية.

المَوردُ (١٤):

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [٦٣].

وتظهَرُ المصلحةُ التي يُغلِّبُها الأَبناءُ على حسابِ توقيرِ (أَبيهِم) تزلُّفًا مصطَنعًا؛ فيخاطبُونه بلسانِ التحنُّنِ: (يا أَبانا) طلبًا لإِرسالِ أَخيهم معهم في قافلتِهم إلى مصرَ لاستحصالِ حِمْلٍ جديدٍ له يَفيدُون منه توفيرًا للطعامِ اللازمِ توفيرُه في زمنٍ عصيبٍ مُقحِطٍ مُجدِبٍ وهم يُؤمِّنون أَباهم بلفظِ (أَخانا) أَنَّهم مسؤولون عن حمايتِه، ومتكفِّلون رعايتَه بدليلِ (أَرسِلْ معنا)؛ فمصيرُه مصيرُهم، ومسارُه مسارُهم.

وهذا من مَكرِ الحوارِ عند طلبِ المصلحةِ الذاتيةِ لتحقيقِها؛ فالفرقُ كبيرٌ نفسيًّا واعتباريًّا بين (لَيُوسُفُ وأَخوهُ) تنكُّرًا، و(أَرسِلْ معنا أَخانا) تزلُّفًا!

المَوردُ (١٥):

﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[٦٤].

وهنا تتجلَّى حِكمةُ الردِّ من النبيِّ يعقوبَ (عليه السلامُ) بانتظامِ جوابِه – بالسؤالِ الاستنكاريّ الذي وجَّههُ لهم – لفظَ (أَخيهِ)، ولم يقُل: (أَخيكُم) تبيينًا لانسلاخِهم هم من دائرةِ الإِخاءِ مع يوسفَ (عليه السلامُ).

وهذا اعتبارٌ بردِّ المتنكِّرين لصلةِ رحِمِهم أَن يُتنكَّرَ لهم بأَلفاظِ الحوارِ بما يُوقِفُهم على أَخطائِهم، ويأْخُذُ بأَيديهِم نحوَ الصوابِ قولًا وعملًا.

المَوردُ (١٦):

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾[٦٥].

وفي هذا الحوارِ تتوالَى أَلفاظُ التحنُّنِ والترغيبِ، والتلطُّفِ والتحبيبِ بقولِهم: (يا أَبانا، أَهلَنا، أَخانا)؛ فالكُلُّ مضافٌ إِليهم (الأَبُ، الأَهلُ، الأَخُ)؛ لذا لم يَصِحَّ عندَهم أَن يَّأتيَ على لسانِهم: (يا أَباهُم أَو يا أَيُّها الأَبُ)، ولا (ونَميرُ الأَهلَ / أَهلَهم)، ولا (الأَخَ / أَخاهم).

إِنَّ المصلحةَ الشخصيةَ هي التي حكمت بهذه الموارِدِ اللفظيةِ حوارًا!

المَوردُ (١٧):

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ [٦٧].

وعندما يَحينُ أَوانُ خِطابِ الأَبِ الحنونِ ذي الإِيمانِ الرصـــينِ، وحُبِّ أَبنائِه المَتينِ؛ فإِنَّ اللفظَ ذا الوَقعِ النفسيِّ المؤثرِ كثيرًا يحضُرُ بانمياز في الخِطابِ.

وهذا ما تحصَّـل من النبيّ يعقوبَ (عليه السـلامُ) وهو يَخشَـى على أَبنائِه، ويوثقُ نسـبتَهم إِليه بقولِه: (يا بَنِيَّ)؛ فهم مرتبطون به عائدون إِليه، وهو مسـؤولٌ عنهم يُرشِـدُهم بخبرتِه إِلى ما يُنجِيهِم، ويُبعِدُ عنهم شـرَّ المتربِّصِين والحاسِدِين فيُحيِيهِم.

المَوردُ (١٨):

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٦٨].

ولأَنَّ النبيَّ يعقوبَ (عليه السلامُ) قد خاطبَهم انتسابًا بما هو حقٌّ لهم عبَّر عنه النصُّ القرآنيُّ بلفظِ (أَبوهُم)؛ وهل هو إِلَّا أَبوهم صِدقًا؟!

إِنَّ كثيرًا من الأَبناءِ النَّزِقِين الجَاهلين لا يُدرِكون عظمةَ الأَبِ وهو يخشَى على أَبنائِه من حوادثِ الماكِرين، ومحارقِ الحاسدِين!

المَوردُ (١٩):

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٦٩].

إِنَّ للفظِ (أَخاهُ) إِخبارًا عن حميميةِ اللقاءِ بين الأَخوَينِ بعدَ فِراقٍ وأَسى؛ لذا بادر النبيُّ يوسفُ (عليه السلامُ) بمخاطبةِ أَخيه كاشفًا له عن هُوِيَّتِه: (أَناْ أَخوكَ).

ما أَروعَها من لفظةٍ! وما أَشرفَه من لقاءٍ! فلا بؤسَ بوجودِ الأَخِ.

المَوردُ (٢٠):

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [٧٠].

وهنا الإِخبارُ بوَثاقةِ الصلةِ بلفظِ (أَخيهِ) الذي يُريدُ حمايتَه عندَه، وعندما يُطلَقُ بالإِضافةِ الصريحةِ فهو محَلُّ وِئامٍ، وعندما يُطلَقُ بلفظِ التنكُّرِ (في رحْلِ أَخٍ له) فهو محَلُّ خِصامٍ.

المَوردُ (٢١):

﴿فبدأَ بأَوْعِيَتِهِمْ قبلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِّعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [٧٦].

وتُثيرُ ألفاظُ (أَخيهِ، أَخيهِ، أَخاهُ) جوَّ الأَحداثِ بالخِطابِ الغيبيِّ الذي جاء بقولِه تعالى إخبارًا عمَّا جرى للنبيِّ يوسفَ (عليه السلامُ)؛ فقد توثقت بها صِلةُ الإخوةِ والإخاء.

المَوردُ (٢٢):

﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [٧٧].

وهنا تأتي الصعقةُ المؤلمةُ بإلصاقِ تهمةٍ مُخِلَّةٍ بشرفِ الوجودِ في الحياةِ بعبارةِ تنكُّرٍ من الإخوةِ لأَخيهِم العارفِ بسيرتِه نقاءً، وبسريرتِه بهاءً إذ قالوا: (أَخٌ له)، ولم يقولُوا: (أَخونا) استنكافًا، وتعاليًا على الحدَثِ تنصُّلًا من اللومِ، والعتابِ، والآثار. وهذا من مساوئِ الأَخلاقِ.

المَوردُ (٢٣):

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ [٧٨].

ويَعقُبُ التنكُّرَ الأَولَ بقولِهم: (أَخٌ له) تنكُّرٌ آخَرُ بقولِهم: (إنَّ له أَبًا) فلا مصلحةَ لهم بنسبتِه الحقيقيةِ إليهم إضافةً (إنَّ أَبانا) إذ لم يقولُوا: (إنَّ أَبانا) كما كانُوا يتصنَّعُون له جمالَ العبارةِ بخِطابِهم (يا أَبانا) عند إرادةِ تحقيقِ مصلحتِهم.

حذارِ حذارِ من هذا الانحطاطِ الأَخلاقيّ بينَ الأَبناءِ وأَبيهِم!

المَوردُ (٢٤):

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[٨٠].

وهنا يَعودُ الخِطابُ على لسانِ كبيرِ إخوةِ النبيّ يوسفَ (عليه السلامُ) إلى حاضرةِ الأَخلاقِ تأنيبًا، وتوجيهًا لتدارُكِ ما جرى الخطأُ المتعمَّدُ فيه إلى صوابٍ لا بدَّ منه ولو بعدَ حينٍ قريبٍ؛ فيقولُ لهم: (أَنَّ أَباكم) تقريعًا بإضافتِه إليهم وتوثيقًا لهذا التقريعِ بقولِه لهم عن نفسِه: (حتى يأذَنَ لي أَبي).

إنَّ التصريحَ بلفَظَي (أَباكم، أَبي) تصحيحُ مسارٍ بتقريعٍ باطنيٍّ يُظهِرُ أَسفًا مما جرى!

المَوردُ (٢٥):

﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾[٨١].

ويستمرُّ التقريعُ للإخوةِ الظالمِين من أَخيهِمُ الكبيرِ الذي تراجعَ عن موافقتِهم على أَفعالِهم بصحوةِ ضميرٍ أَرشدته إلى سواءِ السبيلِ بعبارةِ (أَبيكُم) إشعارًا لهم بعدمِ قدرتِهم على التنصُّلِ من حُجَّةِ المَوثِقِ الذي واثقُوه به لحفظِ أَخيهِم (بنيامين) ، وتوجيهًا لهم بأَن يُبادرُوه بلفظِ التحنُّنِ والتلطُّفِ (يا أَبانا) إخبارًا له عما صدر من أَخيهم بوصفِهم له بعبارتِهم (إنَّ ابنَكَ) دَلالةً على أَنه جزءٌ منكَ ، وامتدادٌ لكَ ؛ فإذا كنتَ واثقًا منه ؛ فلا

تُصَدِّقْ ما وصفناهُ به ما دام قد تربَّى على خُلُقِكَ ، واهتدَى شرعًا بهَدْيِكَ. وهذا تلطيفٌ منهم بعبارةٍ لا بدَّ منها توقيرًا منهم لأَبيهِم.

وهنا نستحضِرُ أَنه يجبُ علينا أَن ننقُلَ الحقيقةَ بما وقعت وإِن كانت نسبةُ إِيقاعِها إِلى صاحبِها لا تُناسبُه أَخلاقًا ولكنه نقلٌ يُبصِّرُ المخاطَبَ بإِبقاءِ منافذِ التبرئةِ مفتوحةً على مصراعَيها إِثباتًا للحقيقة.

المَوردُ (٢٦):

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [٨٧].

ويُكرِّرُ خِطابُ الأَبِ الحنونِ مرةً أُخرى (يا بَنِيَّ) كشفًا عن حُبِّ الأَبِ أَبناءَه، وخوفًا منه عليهم؛ فهذا اللفظُ يولِّدُ وَقعًا نفسيًّا مؤثرًا في الأَبناء ولا سيَّما أَنَّ النبيَّ يعقوبَ (عليه السلامُ) قد أَردفه بالتذكيرِ المؤلِمِ تأنيبًا بـ(يوسفَ وأَخيه) وهما اللذَين آذاهما أَبناؤُه الذين يُخاطبُهم تحنُّنًا على الرغمِة مما فعلُوه: (يا بَنِيَّ).

إِنَّ الصوابَ أَن نُبقِيَ الكلمةَ الطيبةَ صدَقةً بيننا وبينَ مَن آذانا علَّها تقرَعُ جَرْسَ تأنيبِ الضميرِ لديه.

المَوردُ (٢٧):

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [٨٨].

وفي أَوقاتِ الشِّدَّةِ يتحصَّلُ الخِطابُ الاستعطافيُّ (يا أَيُّها العزيزُ) بما يُحَنِّنُ القلبَ، ويستميلُ صاحبَه بعبارةِ (مسَّنا وأَهلَنا الضُّرُّ)؛ فالأَلَمُ من نقصِ المؤُونةِ، وشدَّةِ الجوعِ قد شَمِلَ الأُسرةَ كلَّها مع المتحدِّثِ الذي وثَّق أَنه جزءٌ وفَردٌ منها وليس بغريبٍ عنها.

المَوردُ (٢٨):

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [٨٩].

وهنا تأتي الصعقةُ بخطابِ النصرِ من النبيّ يوسفَ (عليه السلامُ) وهو يعرِضُ بعبارةِ التقريعِ (هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ) جسامةَ الخطأِ العمدِ الذي ارتكبه إخوتُه وهو يتنكَّرُ لهم بقولِه: (بيوسفَ وأَخيه) عنِ التعريفِ بنفسِه مباشرةً إذ أَراد أَن تكشِفَ لهم قرائنُ الحوارِ شخصيتَه وشخصيةَ أَخيه (بنيامين)؛ لذا لم يقل لهم: (هل عَلِمتُم ما فعلتُم بي وبأَخي)؟!

وهذا درسٌ أَخلاقيٌّ قِوامُه أَنَّ النصرَ يكشِفُ انهيارَ قِوى الخصمِ بإِلقاءِ الحُجةِ عليه من اعترافِه هو بعد تضييقِ الخِناقِ عليه بالحقّ.

المَوردُ (٢٩):

﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٩٠].

لم يُخاطبُوه مستعلِمين بعبارةِ (أَإِنَّكَ لَأَنتَ أَخونا) بل قالُوا: (أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ)؛ لأَنَّ الجفاءَ والحسَدَ ما يزالُ يضرِبُ على قلوبِهم بظِلالِه؛ فردَّ عليهم مترفّعًا عليهم بتوفيقِ اللهِ ونصرِه له ولأَخيه مبيّنًا لهم رِفعةَ شأنِهما هما وحدَهما عليهم هم جميعًا بقولِه: (أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي)، ولم يقُل: (نحن أَو إِنَّا أَخواكُما)!

المَوردُ (٣٠):

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٩٣].

وهنا تتحصَّلُ البُشرى بعَودِ الإلفِ إلى إلفِه، والفرعِ إلى أَصلِه بعبارةٍ صداها التكاملُ بين جزأَينِ لا ينفَكُّ أَحدُهما عن صِنوِهِ بما يدُلُّ عليه قولُه: (أَبي) فهو حاضرٌ معه وهو منتسبٌ إليه لم يُفارقْه قطُّ.

أما قولُه: (بأَهلِكم) ولم يقُل (بأَهلي) فجاء عتابًا مُحرجًا لإخوتِه بأَنكم أَنتم وحدَكم قدِ انفردتُّم بأَهلِكم تآلُفًا وتقارُبًا، ولم يكن ذلك لي منكم، ولكنكم لم تكونُوا بهذا التآلُفِ والتقارُبِ مع أَبيكم كما كان له مني؛ فقال: (أَبي) ولم يقُل: (أَبيكم).

المَوردُ (٣١):

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [٩٤].

وهنا يأتي الإخبارُ بانتهاءِ البُشرى إلى ربوعِ النبيِّ يعقوبَ (عليه السلامُ) تُخبرُه يقينًا قلبيًّا بوجودِ ابنِه النبيِّ يوسفَ (عليه السلامُ) حيًّا قريبًا منه بمقدِّماتٍ نشأت عن ريحٍ طاهرةٍ يحمِلُها قميصٌ صار دليلًا وحُجةً في مواضعَ شُبهةٍ جاء فيها برهانًا ساطعًا بالحقِّ؛ فعبارةُ (أَبوهم) تُلزِمُهم هم كلُّهم بلا استثناءٍ بالاعترافِ الصريحِ بناءً على هذه الحُجةِ، وهذا البرهانِ. وقد ذُكِر (يوسفُ) بالريحِ من دونِ (بنيامين) لأَنَّ القميصَ الدليلَ والحُجةَ والبرهانَ إنما هو قميصُ يوسفَ (عليه السلامُ) الذي صار دليلَ كَذِبِهم بسلامتِه من التمزيقِ وهم يدَّعون أَنَّ الذئبَ قد أَكلَه، ودليلَ براءتِه من افتراءِ زوجِ العزيزِ عندما ادَّعت هجومَه عليها وقد قُدَّ قميصُه من دُبُرٍ، ودليلَ حياتِه وشفاءِ أَبيه بريحِه التي عَلِقَت به.

المَوردُ (٣٢):

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [٩٧].

ويعودُ خِطابُ التزلُّفِ والتلطُّفِ اعترافًا بالخطأِ من الأَبناءِ وهم يقفون بين يدَي أَبيهم صاغرين معترفين بتعمُّدِهم خطأَهم وإقدامِهم عليه قصدًا يُخاطبونه: (يا أَبانا). وهذا موقفُ ذُلٍّ وإحراجٍ لا مناص من المُكابرةِ فيه.

وحسنًا يفعلُ الإنسانُ عندما تُكشَفُ أَوراقُ أَفعالِه أَن يَّعترِفَ بأَخطائِه، وأَن يطلُبَ العفوَ والصفحَ مستغفِرًا؛ فهذا أَليقُ من التمادي كِبرًا بالإثم.

المَوردُ (٣٣):

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ، وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[٩٩-١٠٠].

وتتحققُ الرؤيا التي كانت مِفتاحًا لهذه الأَحداثِ كلِّها؛ فالإخوةُ الآنَ بين يدَيه مُذعِنين مستغفِرين مُطيعين تائبين، والأَبوانِ مُعزَّزانِ مُكرَّمانِ في مأوًى ومَرفَعٍ آمِنٍ أَمينٍ، وعِزٍّ حاضرٍ مَكينٍ بمصداقِ قولِه تعالى: (آوَى إليه أَبوَيهِ، ورفعَ أَبوَيهِ).

إنَّ خُرورَ الأَبوَينِ سُجَّدًا بين يدَي ابنِهما لَدَليلٌ قاطعٌ على أَنَّ الطاعةَ تجِبُ لمَن يُمسِكُ بزِمامِ الأَمرِ وإن كان الآمِرُ الابنَ والمأمورُ الأَبَ؛ فالعُمُرُ وكِبَرُ السِّنِّ لا يُمكِّنُ صاحبَه من التقدُّمِ على وليِّ الأمرِ وإن كان صغيرًا عُمُرُه. وقد كانتِ الوِلايةُ للنبيِّ يوسفَ (عليه السلامُ) على أَبيه النبيِّ يعقوبَ (عليه السلامُ).

ويعودُ لفظُ الخِطابِ الاستعطافيِّ بالتوقيرِ مرةً أُخرى من الابنِ الصالحِ إلى الأَبِ الناصحِ: (يا أَبَتِ) نداءً حواريًّا لافتًا للنظرِ إلى نعمةٍ عُظمَى لا طلَبًا لشيءٍ.

وأَخيرًا يبعثُ المنتصِرُ الأَملَ في أَنفسِ الذين ظلمُوه وهو يَصِفُهم بـ(إخوتي)، لا بـ(أَعدائي). وهذا هو التجلِّي الأَمثلِ للأَخلاقِ الفَضلَى، ولمقابلةِ الإساءةِ بالإحسان.

نعم هذا هو الحقُّ الناصعُ اعتبارًا لنا بما جرى على المقدّسين من عبادِ اللـــهِ المخلَصين بمصداقِ قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [١١١].

خلاصةٌ وتوجيهٌ:

ممَّا مرَّ يتحصَّلُ لنا أَنَّ اللازمَ على الإنسانِ أَن يَّكونَ ذا منهجٍ واحدٍ في السرَّاءِ والضرَّاءِ بتعاملِه مع ذويهِ، ومع أَبناءِ جِلدتِه ســـواءٌ أَكانُوا قريبين إليه أَم بعيدين عنه، وأَن يَّكونَ ذا حِكمةٍ في فَهمِه للأَحداثِ، وربطِه بين المواقفِ ، وتمكُّنِه من التصرُّفِ الأَسلمِ الأَفضلِ عند لزومِ تصدِّيه لها ووجوبِ إبداءِ رأيِه فيها.

وهذا اللازمُ يَظهرُ في تعبيرِ الإنسانِ مخاطِبًا كان أَم مُخاطَبًا، ويتجلَّى في خطابِه وحِوارِه إن صَدَر الكلامُ منه، أَو في فَهمِه وتحليلِه إن صَدَر الكلامُ إليه.

لقد تحصَّل لنا من أَساليبِ التعبيرِ المتنوعةِ الواردةِ في سورةِ يوسفَ (عليه السلامُ) في دائرةِ التخاطُبِ بينَ أَفرادِ أُسرةِ النبيِّ يعقوبَ (عليه السلامُ) فيما جرى بينَه وبينَ ابنِه يوسفَ أَوَّلًا ، وبينَه وبينَ أَبنائِه الآخرين ثانيًا ، وبينَ أَبنائِه وأَخيهم يوسفَ ثالثًا ، أَو بين ابنِه بنيامين وإخوتِه رابعًا ، أَو ما جاءَ إخبارًا عنهم ، وسوى ذلك مما جرى من حواراتٍ وتخاطُبٍ بين هذه الأَطرافِ الثلاثةِ وســـواها من حدودِ الأُســـرةِ أَو من خارجِها أَنَّ لموقفِ الخشـــيةِ والتحنُّنِ والتلطُّفِ لفظُه وعبارتُه ونبرةُ خطابِه ، ولموقفِ التآمُرِ والتحايُلِ لفظُه وعبارتُه ونبرةُ خطابِه ، ولموقفِ التلوُّنِ والنفاقِ والتزلُّفِ لفظُه وعبارتُه ونبرةُ خطابِه ، ولموقفِ المواجهةِ والصـــراحةِ والاعترافِ والتقرُّبِ لفظُه وعبارتُه ونبرةُ خطابِه. ولا يُمكنُ لأُسلوبٍ واحدٍ منها أَن يُغنِيَ عنِ الأَساليبِ الأُخَرِ؛ فكلُّ عبارةٍ لها بواعثُها وفضاءاتُها التي تُخالفُ سواها بحسبِ بواعثِها وفي فضاءاتِها الأُخرِ.

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وصلَّى اللهُ على سيدِنا محمدٍ وآلِه الطاهرين